

لمحة عن تاريخ الأوبئة بتونس

An overview of the epidemics history in Tunisia

مكارم سلاطني

دار الثقافة قربنالية، نابل (تونس)، makaremslatni@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/05/17 تاريخ القبول: 2020/10/20 تاريخ النشر: 2021/12/30

ملخص:

لم تكن تونس بمنأى عن العالم فقد عرفت منذ القدم العديد من الأوبئة شأنها في ذلك شأن بلدان المغرب العربي، ولقد اجتاحت هذه الأوبئة تونس خلال فترات مختلفة وكانت أهمها منذ القرن 14. فخلال العهد الحفصي عرفت البلاد حتى التيفوئيد والطاعون الأكبر الذي وصل عدد ضحاياه لـ 1000 شخص يوميا، وخلال الفترة العثمانية وباء 1702 وخلال الفترة الحسينية البواء الكبير وطاعون 1818-1820. ومن أخطر الأوبئة أيضا الكوليرا التي ضربت تونس خلال فترات مختلفة ومتباعدة وأدت إلى وفيات عديدة وخسائر جسيمة خاصة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ولكن في كل مرة كانت البلاد التونسية تتجاوز هذه الأوبئة وتتخطى هذه الأزمات. وكانت من أهم الوسائل لمجابهة هذه الأوبئة الحجر الصحي ما يسمى "الكرنطينة" يعزل فيه المرضى لمدة 15 يوما، كذلك حرق ثياب الموتى، إلى جانب العلاج الطبي والدعاء وقراءة القرآن، كما لجأ البعض إلى الطب التقليدي وبعض العادات. لعلنا بهذا الطرح نساعد في فهم ومعرفة أسباب هذه الأوبئة وجذورها وكيفية تطورها، فحاضرنا ليس منفصلا عن ماضيها خاصة ونحن نشهد هذه الأيام وباء اجتاحت العالم بأسره مخلفا آلاف الضحايا وباء "كوفيد 19" أو ما يطلق عنه بـ "فيروس كورونا". هكذا فإن التمعّن والبحث في التاريخ يمكن الإنسان المعاصر من الاستفادة من التجارب والإجراءات المعتمدة ليطورها ويوظفها في معالجة قضايا الواقع الراهن.

كلمات مفتاحية: تونس؛ تاريخ الأوبئة؛ الطاعون؛ الحجر الصحي؛ العدوى.

Abstract:

Tunisia has never been far from the world and since antiquity it has known many epidemics like the maghreb countries. The most important epidemics back to the 14th century, like the typhoid fever and the greatest plague during the Hafsids era, with the number of victims reaching 1000 daily. Also epidemic of 1702 during the Ottoman period and the great epidemic and the plague of 1818-1820 during the Husaynid period. The cholera hit Tunisia during various periods, leading to numerous deaths and serious economic and social losses. But every time Tunisia defeats epidemics. The most important ways to confront these epidemics were quarantine, called "kurnetina", isolation of patients for 15 days, also burning the dead clothes, medical treatment, prayer and reading Quran and resort to traditional medicine. Perhaps with this approach we are helping to understand the causes of these epidemics, their origins and their evolution. Our present is not separated from our past, especially as we are now witnessing a pandemic that has swept the world, claiming thousands of victims under the name "Covid 19" or "Corona virus". Thus, reflection on history allow the humanity to use the experiences and develop intelligence to confront the challenges of today.

Key words: Tunisia; history of epidemics; plague; quarantine; infection.

مقدمة:

لم تكن تونس بمنأى عن العالم فقد عرفت منذ القدم وعبر تاريخها العديد من الأوبئة شأنها في ذلك شأن بلدان المغرب العربي، وقد شهدت البلاد التونسية اجتياحا للأوبئة خلال فترات مختلفة كان أهمها منذ القرن الرابع عشر وكانت النتيجة الكثير من الوفيات، ومن أهم هذه الأوبئة الطاعون والكوليرا التي كانت لها عدة تأثيرات على البلاد سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، تعاملت السلطات التونسية مع هذه الأوبئة في كل مرحلة على أنها خطر جسيم يهدد البلاد فكان لها عدة إجراءات وتدابير للتوقي منها والحد من انتشارها. في هذا الإطار يتنزل هذا العمل الذي سيتطرق لأهم الأوبئة التي عرفت البلاد التونسية والإجراءات التي اتخذتها الدولة ومؤسساتها آنذاك في مواجهة خطر هذه الأمراض، ليكون لماضيها أهمية في تطوير حاضرنا واستشراف مستقبلنا لاسيما ونحن نشهد هذه الأيام وباءا جديدا يحتاج العالم بأكمله مخلفا وراءه العديد من الضحايا.

1. العصور القديمة:

عرفت تونس خلال العصور القديمة ظهور الطاعون بداية مع قرطاج التي انتقلت لها العدوى من روما عبر صقلية والذي أودى بحياة الكثير من الناس. ثم عاد هذا الوباء للظهور مع الفترة الوندالية وأيضا البيزنطية في فترات مختلفة ثم ظهر مجددا في العصور الوسطى وتحديدًا بعد الفتح الإسلامي للبلاد التونسية خاصة مع الحروب التي دارت بين العرب والبربر، امتاز التاريخ القديم بحروب التموقع فعانت شعوب تلك الفترات مخلفات هذه الحروب إذ كانت تواجه الموت والأسر والفقر على ذلك الأمراض وانتشارها.

لم تعرف البلاد أوبئة كبيرة خلال فترة الأغلبية التي دامت من سنة 800 إلى سنة 909م والتي كانت بمثابة الهدنة لكن بعد ذلك ومع الفاطميين الذين حكموا تونس في الفترة الممتدة بين سنتي 909 و972م تذكر المصادر أن إفريقية عرفت وباءا ضرب خاصة مدينة القيروان (ابن أبي دينار، 1967، ص.57) وقد عرفت هذه الفترة إشعاعا علميا خلده التاريخ على غرار ظهور العديد من الأدباء والعلماء في اللغة والطب نذكر على سبيل المثال ابن الجزار، ثم ومع بداية القرن الحادي عشر فترة حكم الزييريين أو الصنهاجيين لتونس يذكر أن طاعونا ضرب البلاد أدى إلى وفاة الكثير من الناس.

2. الأوبئة التي اجتاحت تونس منذ القرن 14 :

1.2. الأوبئة خلال العهد الحفصي:

حكم الحفصيون تونس من سنة 1229م إلى حدود سنة 1574م وتميزت فترة الحكم الحفصي في بدايتها بسلسلة من الاضطرابات بسبب الصراع القائم على السلطة من جهة ومواجهة بعض القبائل الداخلية من جهة أخرى أما القرن الثاني من حكمهم فقد عرف استقرارا وعرفت البلاد تطورا في العديد من المجالات، كما تميزت الفترة الحفصية بتونس بتوظيف الزوايا التي لعبت دورا مهما في تأطير المجتمع والمساعدة على تحقيق الاستقرار وهذه الزوايا في حد ذاتها كان لها دورا في نصيح الناس وإرشادهم زمن الأوبئة، فخلال فترة حكم الحفصيون لتونس عرفت البلاد عدة محطات لعدة أوبئة. فيما يلي نستعرض أهمها:

1.1.2. حمى التيفوئيد :

اجتاح هذا الوباء تونس وقد كان فتاكا و خطرا إذ أودى بحياة الكثيرين، منهم من العلماء والرجال الصالحاء بالبلاد. كما أدى هذا الوباء لوفاة لويس التاسع عند وصوله تونس اثر الحملة الصليبية الثامنة التي قادها سنة 1270 وذلك لفرض الدين المسيحي على الدولة الحفصية.

حمى التيفوئيد هو مرض بكتيري معدي ينتج عن أكل أو شرب المواد الملوثة، وتتمثل أعراض التيفوئيد في حمى شديدة تتزامن مع صداع وألم بالبطن، سعال جاف، فقدان الشهية، الإسهال أو الإمساك، الشعور بالوهن والتعب كما يمكن ظهور طفح جلدي في حالات، ويمكن أن ينجر على عدم العلاج نزيف أو ثقب في الأمعاء في الأسبوع الثالث من المرض وهذا يؤدي إلى الوفاة في أغلب الأحيان.

2.1.2. الطاعون الأكبر:

كان للطاعون الأكبر عدة تسميات أخرى منها الطاعون الأعظم والطاعون الأسود وذلك لقساوته وتأثيره على الناس والبلاد في ذلك الوقت من الناحية الاقتصادية والديمغرافية. كان هذا في منتصف القرن الرابع عشر حيث اجتاح هذا الوباء مدينة تونس منذ 1347 وتواصل لحدود سنة 1349 ونذكر أن عدد ضحايا هذا الوباء كان يبلغ حوالي 1000 شخص يوميا. أما انتشار هذا الوباء

فقد كان راجعا للفسن التي كانت تأتي إما من الشام أو مصر أو إيطاليا، دام هذا الوباء سنتين كانت كفيفة بأن تكون لها عدة تأثيرات سلبية على المجتمع التونسي أدت إلى معاناة الشعب من مخلفات هذا الطاعون خاصة حالة الفقر التي تلت هذه الفترة الصعبة.

بعد الطاعون الأكبر عرفت تونس عدة طواعين أخرى حيث كانت تجتاح البلاد في فترات متباعدة أي كل عشرة سنوات أو خمس عشرة أو خمسة وعشرين سنة، منها من كان محليا ومنها من بقي فترة قصيرة ولم يكن لها تأثير كبير. (أحمد السعداوي، 1995، ص. 119-141).

لكن مع حلول سنة 1440 إلى 1443 اجتاحت البلاد طاعونا كان فتاكا شأنه شأن طاعون سنة 1466 الذي كان قاسيا جدا حيث بلغ عدد الموتى يوميا بالآلاف وقد استمر لحدود سنة 1468، كان لهذا الطاعون عدة تأثيرات سلبية على السكان خاصة على الفئات الضعيفة والتي تعاني من الفقر، كما كان له تأثيرا على التركيبة الديمغرافية والحياة الاقتصادية والسياسية حينها فكل هذه الأزمات من شأنها أن تؤثر سلبا على البلاد عامة .

لم ينته القرن الخامس عشر بأخبار سارة بل انتهى على العكس بوباء عنيف بدأ سنة 1492 وتواصل لحدود سنة 1493 أودى هذا الوباء بحياة الكثيرين نذكر من بينهم السلطان الحفصي أبو زكريا.

عرفت الفترة الحفصية عدة أوبئة فتاكة كان لها التأثير الواضح على المجتمع التونسي آنذاك.

2.2. الأوبئة خلال الفترة العثمانية:

حكم العثمانيون تونس في الفترة المتراوحة بين سنتي 1574 و1702م وخلال فترة حكمهم لم تترك الأوبئة البلاد حيث كانت هناك موجة جديدة من الأوبئة نذكر منها الطاعون الذي اجتاحت البلاد سنة 1592 وخلف عديد الضحايا، انتشر هذا الوباء بداية في العاصمة التونسية وتذكر المصادر أن هذا الوباء دام حوالي ثلاث سنوات، ثم انتشر من جديد سنة 1624 في سجون بنزرت في صفوف المساجين لكن بقيت العدوى محصورة داخل هذه السجون ولم تتفشى خارجا بين

العامة، وفي مرحلة أخرى اجتاحت هذا الوباء مدن الجنوب التونسي أرجع المختصون ذلك للمبادلات التجارية آنذاك ولتجارة القوافل.

لئن تراجعت نسبة الإصابات بتونس العاصمة في 1650 إلا أن الوباء عاود الظهور بها في 1675 إلى حدود سنة 1679 حيث بلغ عدد ضحاياه حوالي 40000 في ستة أشهر. في هذه الفترة كان علي باي لا يحضر الجنائز خوفا من هذا الوباء ومن العدوى. لم تكن تونس البلد الوحيد الذي عانى من هذا الطاعون بل انتشر أيضا بالجزائر والمغرب مخلفا عدة ضحايا، يذكر أن هذا الوباء تراجع خلال شهر أوت ليعود من جديد سنة 1689 وكانت الإصابات عديدة .

1.2.2. وباء 1702 :

من الأوبئة التي ظلت راسخة في تاريخ البلاد حيث اجتاحت هذا الوباء تونس سنة 1702 بداية من جزيرة جربة عن طريق دخول السفن التركية وجنوبا من مدينة طرابلس، وانتشر هذا الوباء لاحقا بصفة كبيرة في البلاد ليخلف العديد من الضحايا مما يشهد على قساوته وكانت العدوى تنتشر بين الناس بسرعة.

لقد عانت تونس من هذا الوباء كثيرا إذ تواصل بالعاصمة حوالي 6 أشهر وقضى على آلاف الأشخاص. لم تكن فترة وباء 1702 طويلة بالمقارنة بالأوبئة الأخرى ولكن نتائجه كانت وخيمة.

3.2. الأوبئة خلال الفترة الحسينية:

حكم الحسينيون تونس في الفترة المتراوحة بين سنتي 1705 و 1957م حيث دام حكمهم للبلاد التونسية 252 سنة انتهت بقيام الجمهورية التونسية وبذلك طوت تونس نظام الحكم الملكي نهائيا.

عرفت هذه الفترة العديد من الإصلاحات خاصة مع أحمد باشا باي إلا أن هذه الفترة التي عرفت ازدهارا مع بعض البايات هي نفسها التي كانت سببا في دخول الاحتلال الفرنسي لتونس سنة 1881 بعد توقيع محمد الصادق باي على معاهدة باردو آنذاك، كما شهدت هذه الفترة أزمات منها أزمة الوضع الصحي حيث عرفت البلاد عدة أوبئة ظلت محفورة في الذاكرة الجماعية، وبما أن فترة الأزمات هي فترة بروز مواقف الحكام في تسيير مؤسسات الدولة وفي اتخاذ التدابير

اللازمة لإنقاذ الشعب والبلاد من خطر هذه الأمراض فإن المؤرخين نقلوا لنا الإجراءات المتخذة من قبل البايات في الفترة الحسينية بتونس حيث اختلفت مواقفهم في التعامل مع الوضع الصحي وفي التدابير والإجراءات التي اتخذوها لمواجهة هذه الأوبئة.

1.3.2. الوباء الكبير:

عرفت تونس خلال فترة الدولة الحسينية طاعونا اجتاح البلاد سنة 1784 سمي بالوباء الكبير. وصل هذا الوباء إلى تونس عن طريق السفن التجارية القادمة من مدينة الإسكندرية في مصر التي انتشر بها هذا الوباء منذ سنة 1783.

انتشر هذا الوباء بكل البلاد و تذكر المصادر أن عدد الوفيات كان يصل إلى 90 شخصا يوميا في حاضرة تونس. (أحمد بن أبي الضياف، 1990، ج3، ص.21)

بدأ الوباء الكبير في شهر أفريل 1784 ليتراجع خلال الصيف خاصة في شهر أوت ثم يعود ليضرب بقوة مع نهاية شهر أكتوبر ليحصد المئات من الأرواح يوميا. مع حلول سنة 1785 انتشر الطاعون بشدة خاصة في مدن الشمال الغربي والعاصمة كما كان وجوده عنيفا خلال فصل الربيع حيث كان يفتك بالعديد من الأرواح يوميا، ولم تتخلص البلاد التونسية من هذا الوباء نهائيا إلا في شهر أوت من سنة 1785.

في هذه الفترة كان باي تونس حمودة باشا حريصا على تطويق هذا الوباء حيث كان يوجد بالبلاد مكانا للحجر الصحي يسمى " الكرنينة " يعزل فيه المرضى لمدة 15 يوما، كان هذا الإجراء مهما للغاية بما أنه يساهم في الحد من انتشار الوباء وعدم الالتحام بين المصابين وغير المصابين كما كانت لحمودة باشا عدة إجراءات أخرى لمقاومة الوباء منها مثلا حرق ثياب الموتى ودفن كل من يلقي حتفه نتيجة الوباء في عمق لا يقل عن المترين (أحمد بن أبي الضياف، 1990، ج3، ص.21).

إلى جانب كل هذه التدابير المتوخاة والعلاج الطبي طبعا كان الدعاء و قراءة القرآن من الوسائل المعتمدة لمواجهة الأوبئة، كما لجأ البعض خوفا من المرض إلى الطب التقليدي و بعض العادات هذا ما ذكره السعداوي (1995) في مقاله المتميز حيث قال "بخروا بيوتهم بالعنبر والكافور

والسعة والصندل وتختمو بالياقوت وجعلوا البصل والخل والطحينة من جملة القوت، واقلوا من الأماق والفاكهة وقربوا إليهم الأترج وما شابهه". (ص.136).

أثر هذا الوباء في التركيبة الديمغرافية للسكان، كما أثر سلبا على الحياة الاقتصادية آنذاك مما أدى إلى اندثار بعض الأنشطة الحرفية خاصة والتي كانت شائعة في المجتمع التونسي في تلك الفترة وكان يقتات منها السكان .

2.3.2. طاعون 1794 - 1800 :

عاد وباء الطاعون ليجتاح تونس من جديد في 1794 لكن هذه المرة لم يدم طويلا ولم يكن قاتلا كما هو الحال للطاعون الذي سبقه، انتشر هذا الوباء في العاصمة خاصة وظلت مناطق شرق البلاد وجنوبها في مأمن منه، دام هذا الوباء حوالي 6 أشهر ليشهد بعد ذلك تراجعا مع حلول شهر أوت. لكنه لم يغادر البلاد التونسية نهائيا بل ظل يظهر من حين لآخر، فحسب المصادر فإنه واصل الظهور كل عام لينتشر في كل مرة في جهة من جهات البلاد ثم ظهر بشكل محدود في 1799 ثم في 1800 لكنه رغم كل هذه المدة لم يصل المدى الذي بلغه طاعون 1784.

3.3.2. طاعون 1818-1820 :

بعد الوباء الكبير شهدت تونس وباء جديدا ظهر في نهاية شهر أوت من سنة 1818 وأعلن عليه رسميا في بداية شهر أكتوبر من نفس السنة (1818)، انتشر هذا الطاعون في كامل أنحاء البلاد ودام حوالي سنتين وكانت الوفيات بالآلاف، كان هذا الطاعون فتاكا نظرا لما خلفه من ضحايا واعتبر طاعون 1818 من أكبر الكوارث البشرية في تاريخ تونس. (أحمد بن أبي الضياف، 1990، ج3، ص.165-167).

ظلت تونس بعد طاعون 1818 ولمدة طويلة بعيدة عن الأوبئة حيث لم تسجل طاعونا جديدا ويمكن إرجاع ذلك لوسائل الوقاية التي اعتمدت فانتشار الأوبئة بتونس كان له عدة أسباب وعدة نتائج جعلت من التونسيين و حكام البلاد يلجئون لوسائل متنوعة وطرق مختلفة للحد من انتشار العدوى ويهدف الوقاية من هذه الأوبئة الخطرة، ولكن كل ذلك لم يكن كافيا لحماية البلاد من خطر الأمراض بصفة نهائية بل المتمعن في تاريخ الأوبئة بتونس يلاحظ أن الأساليب المستعملة

للقاية أو العلاج كانت خلال كل هذه الفترات أحيانا ذات فاعلية وأحيانا أخرى اعتبرت بسيطة جدا وكان اللجوء إلى الطب الشعبي أو التداوي بالأعشاب من الطرق الشائعة آنذاك.

وما عمق الأزمات تزامنا مع انتشار الأوبئة وجود الجفاف والمجاعات وتدهور الوضع الاجتماعي بانتشار الفقر والخصاصة في صفوف المجتمع التونسي، وقد شهد الوضع الصحي بعض التحسن في الفترة المعاصرة وذلك راجع إلى تركيز وحدات طبية في عدة مناطق من البلاد خاصة العاصمة التونسية والمناطق الساحلية كما ساهم الاستعمار الفرنسي في ذلك لتوفير كل الظروف الملائمة حتى يتسنى علاج الجنود والمقيمين الفرنسيين والأجانب المتواجدين بتلك المناطق والأهالي وذلك لحمايتهم من الأوبئة.

3. الأوبئة خلال الفترة المعاصرة

1.3. طاعون 1907:

بعد فترة طاعون 1818 وخلال الاحتلال الفرنسي للبلاد سجلت تونس سنة 1907 طاعونا جديدا. كانت أول حالة لأحد السكان العاملين بالميناء بعد حملته لأخشاب كانت تحتها فئران مصابة، بهذه الطريقة انتقلت له العدوى، تواصل هذا الوباء إلى سنة 1908 لكنه لم يسجل خسائر كثيرة، ثم عاد هذا الوباء للظهور من جديد سنة 1910 ثم في سنة 1915 وسنة 1921 لكن لم تكن له أضرارا كبيرة.

2.3. طاعون 1926-1927 :

انتشر هذا الوباء في الجنوب التونسي سنة 1926 عن طريق القوافل التجارية وتسبب في عديد الإصابات بالقيروان و صفاقس كما أدى هذا الوباء إلى عدة وفيات، وسجل سنة 1927 العديد من الإصابات والوفيات بصفاقس خاصة، لينتهي هذا الوباء حينها ويعود من جديد بعد سنتين بداية من شهر ديسمبر سنة 1929 منتشرا بتونس العاصمة.

3.3. طاعون 1940 :

يسمى هذا الطاعون بطاعون الأربعينات، لم يكن لهذا الطاعون تأثيرا كبيرا على البلاد كسابقه، إذ تم تسجيل 12 حالة بتونس سنة 1940 وحالة وحيدة في السنة التي تلتها ثم سجلت 37 حالة من هذا الوباء في بنزرت وتونس ولم تسجل خسائر بشرية .

أرجع المختصون حالات الطاعون آنذاك إلى كثرة العمليات العسكرية في الموانئ التونسية خلال الحرب العالمية الثانية مما ساهم في انتشار الأمراض حيث سجلت عدة حالات في بنزرت وتونس.

4. الكوليرا بتونس:

كان يطلق على الكوليرا أيضا اسم الوباء الأصفر، واعتبرت من أخطر الأوبئة التي عرفت البلاد وعرفها العالم ككل وتعتبر المياه الملوثة من أهم أسباب انتشار هذا الوباء، وقد عرفت منظمة الصحة العالمية الكوليرا بأنها: "عدوى حادة تسبب الإسهال وتنجم عن تناول الأطعمة أو شرب المياه الملوثة. وهي مازالت تشكل تهديدا عالميا للصحة العمومية ومؤشرا على انعدام المساواة وانعدام التنمية الاجتماعية."

ظهرت الكوليرا بالبلاد التونسية في فترات مختلفة ومتباعدة. فقد ظهرت في البداية سنة 1836 بالجنوب التونسي، لم تكن الكوليرا آنذاك خطرة إذ لم تتسبب في وفيات ولم تدم إلا بضعة أشهر رغم أنها تعرف انتشارا بالجزائر وليبيا في تلك الفترة، ولم تكن السلطات التونسية حينها صارمة في الإجراءات الوقائية إذ اقتصر على مراقبة الموانئ في حين أن حركة التنقل عبر البر كانت مسموحا بها مع العاصمة الليبية طرابلس التي كانت موبوءة وتعاني من الكوليرا وتدايعاتها على سكانها، دامت الكوليرا بتونس خلال سنة 1836 ثلاثة أشهر وانحصرت أعراضها فقط في إسهال خفيف لم يكن خطرا.

عرفت البلاد التونسية الكوليرا من جديد سنة 1849 حيث ظهر المرض بداية في مدينة باجة الواقعة بالشمال الغربي التونسي ورغم أن الباي أمر بعزل باجة ومنع القادمين من هذه المنطقة إلى الحاضرة إلا أن الوباء انتشر بكامل البلاد مع بداية سنة 1850 وكانت الوفيات عديدة وخسائره

جسيمة. (Lucette Valensi, 1969, p.p.1540-1561)، لم تكن الكوليرا هذه المرة عابرة كما عرفت في تونس في 1836 بل كانت خطيرة ودامت سنة كاملة مخلفة وراءها العديد من الضحايا، فكانت الخسائر بشرية ومادية.

تذكر المصادر أن باي تونس آنذاك قد عزل نفسه ومعه أتباعه في قرطاج لينتقل بعد ذلك وفي كل مرة إلى مكان خوفي من العدوى، حيث استقر في البداية في قرطاج لينتقل بعد ذلك إلى المحمدية ثم إلى باردو وذلك لابتعد عن المناطق الموبوءة ليعود من جديد ويستقر مع أتباعه في قرطاج .

اختفت الكوليرا نهائيا في شهر أوت من سنة 1850 لكنها عادت للظهور في صيف 1856 قادمة من طرابلس لتجتاح جزيرة جربة ثم منطقة الساحل وصولا إلى تونس العاصمة في منتصف شهر جويلية، وقد بلغت ذروة انتشارها في نهاية شهر أوت لتندثر شيئا فشيئا بعد أن حصدت آلاف الأرواح .

لم تنتهي معاناة الشعب التونسي مع الكوليرا نهائيا لأنها عادت للظهور من جديد في 1867 حيث انتشرت بكثرة في مدينة صفاقس آنذاك وكانت أكثر الفئات المعرضة للوباء من الفئات الضعيفة والمساكين، لم تكن الكوليرا وباء عاديا بل هو مرض خطير انتشر في كامل أنحاء العالم لتتفاوت درجة خطورته من بلد إلى آخر وظل هذا الوباء يراوح بين الاندثار والظهور، أما بالنسبة لتونس فقد عادت الكوليرا للظهور من جديد في شهر سبتمبر من سنة 1911 وانتشرت خاصة في المحيط المفقّر للشعب التونسي حيث اجتاحت الأحياء الشعبية في العاصمة التونسية أين تنعدم تقريبا شروط حفظ الصحة، ومن الإجراءات المتخذة آنذاك إحداث مركزا في منطقة حلق الوادي وذلك بهدف عزل المصابين بالكوليرا وإيواءهم به حتى تتمكن السلطات التونسية من تطويق هذا المرض ومعالجة المصابين .

عانت تونس من خطر الكوليرا في فترات مختلفة ورغم الإجراءات الوقائية المتخذة فإن هذا الوباء كان له عدة تأثيرات سلبية على البلاد التونسية ولم تكن تونس البلد الوحيد الذي عانى من هذا الوباء بل جل بلدان العالم حيث كانت الكوليرا خطرا جسيما يهدد العالم بأكمله .

5. إجراءات مؤسسات الدولة في مواجهة الأوبئة:

إن للأوبئة تأثيرات عديدة على المستوى الاقتصادي، الاجتماعي والديمقراطي تعتبر وخيمة إذ هناك أوبئة ظلت راسخة في الذاكرة الجماعية على مدى عصور لما لها من تأثير سلبي على المجتمع.

يمكننا اعتبار الوباء بمثابة الاختبار ليس لكفاءتنا العلمية والطبية فقط بل هي اختبار لأخلاقنا ومدى تحمل مؤسسات الدولة للمسؤولية تجاه الشعب ومدى تقديم المصلحة العامة على المصالح الشخصية وهذا ما نلاحظه من خلال الإجراءات المتخذة من قبل كل حاكم أثناء فترة الوباء.

إن فترات الأزمات في أي مجتمع وإن كان لها عدة مخلفات سلبية فإنها تبرز مدى صلابة مؤسسات الدولة والمجتمع في مواجهة الأزمات على اختلاف أنواعها وأزمته.

تمدنا العديد من المصادر بالدور الذي لعبته مؤسسات الدولة طيلة الفترات الوبائية التي عرفتها البلاد التونسية خاصة فيما يتعلق بتطبيق الحجر الصحي الذي من شأنه أن يحد من انتشار العدوى مروراً بغلق الحدود ومنع التنقل أو الحد من السفرات بين البلدان التي تشهد انتشاراً لهذه الأوبئة إضافة إلى إجراءات وقائية كحرق ثياب الموتى واجتناب اللقاءات، لم يكن إجراء العزل أو ما يسمى بالحجر الصحي إجراء حديثاً بل هو إجراء قديم اتخذ مع طاعون 1784 بإحداث مركز للعزل الذاتي أو ما يعرف بالكرنطينة.

كان التعامل مع الأوبئة بتونس بالاعتماد على خطة منطقية لمجابهتها وذلك بمعاينة نقطة انطلاق الوباء والعمل على تطويقه حتى لا ينتشر بمناطق أخرى مع اعتماد إجراءات صحية، كما نذكر أنه ضمن إجراءات التوقي من خطر الأوبئة التي عرفت البلاد التونسية ونتيجة عجز الطب أحيانا كثيرة في إيجاد حلول جذرية لهذه الأوبئة انتشر الخطاب الديني في فترات معينة حيث كان هناك تداخل بين السلطة السياسية والسلطة الدينية فقد اعتمد السكان نتيجة خوفهم من المرض على الأدعية والأذكار والصلوات في مقاومة الطواعين كما التجنوا إلى الطب التقليدي والمداواة بالأعشاب أحيانا، نذكر في هذا الصدد أيضا ما أقره الباي إبان انتشار الكوليرا سنة 1850 وفتكها بالآلاف الأرواح حينما اتخذ من الدعاء إلى الله وسيلة لرفع هذا الوباء عن الشعب التونسي حيث يذكر أن أحمد باي أخذ برأي بعض الفقهاء بانعقاد موكب خاشع من الشرفاء في جامع

الزيتونة المعمور للدعاء والتضرع إلى الله بهدف إزاحة هذا الوباء الفتاك أو التخفيف منه. (أحمد بن أبي الضياف، 1990، ج4، ص.149)

ونحن هنا لا ننفي دور العلم والفكر الطبي في مواجهة الطاعون بل نحيلكم على الجمع بين الفكر الطبي والفكر الديني في فترة الأوبئة.

خلفت الأوبئة التي مرت بالبلاد التونسية عبر التاريخ خسائر بشرية ومادية هائلة وما أشبه الأمس باليوم ونحن نعاني وباءا انتشر في كامل أنحاء العالم حاصدا أرواح الآلاف ويمكننا هنا أن نستحضر ما أقره حمودة باشا إبان وباء 1784 من تدابير كالحجر الصحي وحرق ثياب الموتى ولباسهم وغسل الغرباء بالمقابر ودفن الموتى جراء هذه الأوبئة في عمق لا يقل عن المترين، كل هذه الإجراءات تحيلنا على ما أقرته الدولة الحديثة من إجراءات تتعلق هي أيضا بالحجر الصحي الإجباري وبروتوكولات دفن الموتى، ومثلما حصل إبان الفترة الأولى من الحجر الصحي نتيجة وباء "فيروس كورونا" في عدم الامتثال الكلي لهذه الإجراءات كان قد حصل مع حمودة باشا إذ أن الأهالي آنذاك امتنعوا من السياسات الوقائية التي أقرها الباي لتطويق الوباء والحد من انتشاره خاصة نذكر إجراء حرق الثياب بما أن الشعب كان يعاني من الوباء والفقر في آن واحد مما جعل بعض الشيوخ وفقهاء الدين ينصحون الباي بوجوب الاستسلام لقضاء الله وقدره. ولكننا في أيامنا هذه ساهم التطور العلمي ومسار علمنة مؤسسات الدولة في الحد من هيمنة الخطاب الديني وتدخله في القضية الصحية. لكن رغم كل هذه الإجراءات تكبدت تونس خسائر بشرية هائلة طيلة الفترات المختلفة لظهور الأوبئة.

خاتمة:

عرفت تونس منذ العصور القديمة عدة أوبئة فتاكة كان لها تأثيرا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، ولعل فترات الأزمات على قساوتها تتيح الفرصة لإبراز أهمية مؤسسات الدولة وطريقة تصديها لهاته الكوارث، وعلى مر تاريخ البلاد التونسية وما شهدته من أوبئة كانت الإجراءات المتخذة للحد من انتشارها تختلف من فترة إلى أخرى، وربما اختلاف التدابير والبروتوكولات يحيلنا على مدى جاهزية الدولة آنذاك لمجابهة هذا النوع من الأزمات ويحيلنا أيضا على أفكار وقناعات حكام تلك الفترة مثلما رأينا زمن البايات فمنهم من راوح بين العلمي والديني ومنهم من اتخذ تدابير

صارمة للحد من انتشار الوباء معتمدا في ذلك على المرجعية العلمية. ورغم ما شهدته البلاد التونسية من أوبئة فتاكة إلا أنها كانت في كل مرة تتجاوزها وتتخطى هذه الأزمات.

هكذا استعرضنا تاريخ الأوبئة التي اجتاحت البلاد التونسية ونحن نشهد هذه الأيام وباء اجتاح العالم بأسره مخلفا آلاف الضحايا وباء "كوفيد 19" أو ما يطلق عنه بـ "فيروس كورونا"، لعلنا بهذا الطرح نساعد في فهم ومعرفة أسباب هذه الأوبئة وجذورها وكيفية تطورها، فحاضرنا ليس منفصلا عن ماضينا لذلك فإن التمعّن في التاريخ والبحث فيه يمكّن الإنسان المعاصر من الاستفادة من التجارب والإجراءات المعتمدة ليطورها ويوظفها في معالجة قضايا الواقع الراهن.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بن أبي دينار، أبو عبد الله محمد، (1967). "المؤنس في أخبار إفريقية وتونس". مطبعة الدولة التونسية، تونس؛
2. السعداوي، أحمد، (1995). "المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون : الطاعون الأعظم والطواعين التي تلتها القرنين 8-9 هـ / 14-15 م"، مجلة إبلا، تونس، الجزء 58، العدد 175، صفحة 119-141؛
3. بن أبي الضياف، أحمد، (1990). "اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" الأجزاء 3 و4، الدار التونسية للنشر، تونس؛
4. كمون، زاهر، (2020). "تاريخ الأوبئة في تونس من فترة الدولة الحفصية إلى الحرب العالمية الثانية"، أخبار صفاقس، تونس؛
5. Valensi, Lucette. (1969). Calamités démographiques en Tunisie et en Méditerranée orientale aux XVIIIe et XIXe siècle, Annales, 24^{ème} année, N.6, p.p.1540-1561;

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):

مكارم، سلاطني. (2021). لمحة عن تاريخ الأوبئة بتونس. /آفاق فكرية، سيدي بلعباس (الجزائر)، 9 (3)، 74-86؛
 رابط المجلة <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396>